

سجّابير

للأستاذ أديب عباسي

تدني الناس منه وتقربهم
إليه ولكن في غير
ابتذال ولا خفة، وتبريز
في الدروس ولكن في
غير إجهاد ولا مشقة،
واكتمال في التكوين
الجسمي ولكن في

غير نعومة الأنوثة ولا طراوتها. ومن هنا فقد نفّض
جميع الشبان أيديهم (والأصح قلوبهم) من فريدة
لما رأوها تنجذب أنجذاباً قوياً في ناحية صادق،
وتدنو منه ثم تصير معه في دائرة محكمة من الحب
الصحيح والواهب النادرة والرجولة الكاملة؛ وما
كان يدور لأحد بخلد أن يتخطى هذا السور، بله
تخطيطه، ليصل إلى حيث استقر قلب الفتاة ويرزحه
عن موضع ارتكازه

وانقضت سنو الدراسة وخرج صادق يمارس
مهنة الطب بعد أن نال شهادته بامتياز وتفوّق
عظيمين. وخرجت فريدة أيضاً في العام نفسه
لتمارس التعليم في إحدى مدارس الأنثى العالية؛
ولم يكن ذلك من حاجة مادية إلى التعليم وإنما
استعداداً لعهد الأمومة الذي من أول واجباته معرفة
الصغار معرفة اختبار لا معرفة كتب ومحاضرات
ومضى شطر من العام وصادق وفريدة يقتنن
كل فرصة للقاء، يروّحان على عواطفهما، ويُعدّان
العدة للمستقبل البعيد الذي ينتظرهما، مستقبل الحياة
الزوجية السعيدة والبنين الصالحين؛ وانتهيا إلى
مرحلة الاستعداد الأخيرة فأعلنا للمعارف والأصدقاء
خطبتهما التي تلاها الزواج بعد أسبوع، ولم يشذ

بقول شوبنهاور على طريقته في التشاؤم والتقليل
على وجه الحياة: إن معظم الروائيين يقفون
برؤاياتهم عند عتبة الزواج لا يتعدونها، كأن ما بقي
من الحياة لا قيمة له ولا خطر في تقديرهم، أو
كأن ما يملكون علم الخبرة واليقين من انتهاء أحلام
الحب والسعادة قبل الزواج إلى توافه العيش وتحول
الاعتقاد بعده يجعلهم يقفون عند ذلك الحد من رواية
الحب، حتى لا يشوهوا الصورة التي دأبوا على تصويرها
قوية ساحرة جهد طاقاتهم.

وعلى صدق ما يقرر شوبنهاور هنا وعلى عظم الفارق
بين حياة الرؤى والأحلام قبل الزواج، وحياة الجد
والكلفة بعده، فأننا مثبتون في هذه الأقصوصة
صورة من حياة زوجين بعد عهد الزواج لا قبله.
وليس هذا لأن الزوجين اللذين نرسم لهما هذه
الصورة مثلاً لدور الحب الأول تمثيلاً عاجزاً لا يستحق
جهد الرسم ولا عناء التصوير، وإنما هم له لأنه كان
طبيعياً لم يثر شيئاً من فضول الاستغراب في الناس،
كما لم يثر عواطف الحسد ولا مزاحمة الطامعين التي
تكون السبب الأول غالباً في تعقيد الصورة وإكسابها
تشويق الطرافة وإثارة المفاجأة. فصادق كان بين
طلاب الصفوف العليا في الجامعة مثال الشباب النبيل
والرجولة القوية والواهب النادرة: أخلاق وطباع

الموت ووجوم الفناء، وحيناً أمام أقسى الآلام وأشد الأوجاع وآلم الزفرات . ألا يكفيه كل هذا البلاء حتى أحمله أعباء البيت وأثقاله لأنصرف إلى الزينة والزيارات وقتل الوقت في رُثرة المجالس وبطالة الاجتماع ؟ ... وفوق هذا ما فتئت فريدة تهني له كلما آب من عمله جواً روحياً من ذاتها ومما يحيط بها ، يبعث إلى نفسه الراح والروح ، وينفض عن شعوره وأعصابه ما عاقبها من انقباض ، وخالطها من ارتعاض . تلقاه متشوّفة مشرقة ، وتقضى الوقت بين يديه موقدة الحس مشبوبة العاطفة ، وتودعه لهيفة واجفة ، كأنه ذاهب في سفر بعيد أو لخطر أكيد . وهكذا مرت الأيام تترى وحياة هذين الزوجين مثال أعلى ومثل مضروب لهناء الزوجية في السر والاعلان . وقد زاد في هناء الزوجين ووثق بينهما النجاح الباهر الذي نجحه صادق حتى تحطت شهرته المحيط الضيق الذي يعمل فيه ، وغدا مثابة الزمى والمرضى في مختلف القرى والمدن المحيطة

هذا وقد تعرف صادق بحكم عمله إلى أسر كثيرة ، وتوثقت عري الألفة والصداقة بينه وبين عدد كبير منها ، فكثرت دعوات هذه الأسر له ولزوجته في المناسبات العديدة التي تقتضيها الحياة المصرية . وكانت فريدة أول الأمر جد مغتبطة لهذا الطور الجديد من حياتها ؛ وأقول جديد لأنها نشأت في أسرة محافظة ، ثم تسلمتها المدرسة بمجدها وأوامرها ونواهيها العديدة ، ثم انتهت إلى التعليم وهو بضع من القيود ويفرض من الواجبات على المعلمة مالا يبق لها معه مطمح ولا سبيل لهذه الحياة الاجتماعية الحافلة

إلا أنه ما عثم أن أخذت فريدة تضيق بهذه

صادق وفريدة عن التقليد الحديث هنا ، فقد قام الأهل والأصدقاء بدعوتهم في إحدى أمسيات الربيع للمبكر إلى السفينة التي أقرنتها إلى أحد الأقطار المجاورة بقضيان شهر العسل كأنها ما تقضي فترة من العمر

وعاد الزوجان عند نهاية الشهر ، هو لمتابعة عمله ، وهي للقيام بواجبات الزواج والبيت . ولا حاجة إلى القول بأن صادقاً كان إلى هذا الوقت قد اكتسب ثقة العائلات العديدة وأصبح مثابة المرضى وموضع الأمل في الشفاء والسلامة . وقد ساعده على ذلك العلم الوثيق والإحاطة الشاملة والمتابعة الشديدة لكل جديد في عالم الطب ، لعلمه أن الطبيب الذي يففل مسaire مستحدثات الطب يُضحى شيئاً عتيقاً في وقت قصير . هذا إلى الشخصية المحببة والأخلاق الموزونة والثقة بالنفس في غير اعتداد ، والفهم السريع والادراك الصحيح للأزمات النفسية التي تنتاب المرضى والمعتلين ، إلى إشراق قوى في الوجه والنفس يبعث في النفوس أملاً قوياً في الشفاء ورغبة أكيدة في الحياة

أما فريدة فقد غدا همها توفير الراحة الفكرية والحسية لصادق ، ليصفو ذهنه وينصرف إلى عمله الدقيق أخلى ما يكون بالاً ، وأهدأ ما يكون فكراً ، وأشد ما يكون انصرافاً عن توافه الضرورات المزرية والحاجات البتية المربكة . وكانت تقول : ألا يكفيه هذا الفناء الموصول والجهد المضني والزيارات المفاجئة تستله من أحضاني أو من بين يدي ليلاً أو نهاراً ، وتعرضه للفتح الحر أو نفخ القر ، إلى ما يرهق التصور ويرمض الاحساس من العيش الدائم بين آلام الناس وأحزانهم ، حيناً في غمرة

الاجتماعات بمض الضيق ، وأخذ يرين عليها شيئا من الانقباض والخرج كلما دعيت إلى اجتماع من هذه الاجتماعات ، بل لقد تطور الانقباض والخرج إلى مقت وكراهية شديدين . على أن فريدة كانت من قوة الإرادة ورهافة الحس والتحرز بحيث لم يند عن لسانها كلمة أو تبدر منها بادرة تشي بما أخذ يستقر في نفسها من مرارة وكره لهذه الاجتماعات حتى لا تؤذى شعور الزوج وهي الحريصة جداً الحرص على أن تبقى جو البيت الروحي والحسي جنة يفيء إليها من عناء المهنة وأوصاب العمل

وكانت هذه الحال تفضي إلى أوحى العواقب لو استمرت هذه العقدة النفيسة في نفس فريدة وانحدرت إلى معمل العقل الباطن ليحولها سماً زعافاً يسمم الروح ويتلف الأعصاب ، ولو كانت فريدة عادية الذكاء غير شديدة التفتن والفحص لكل بادرة من بوادر النفس وكل هاجسة من هواجس الشعور ، فلقد لاحظت هذا الطور الجديد من الشعور تنتهي إليه من غير إرادة ولا غم منها ، ولما لاحظت كذلك أن نضارتها أخذت تجف ببطء ولكنه أكيد ، وأن الألق والبريق اللذين ينبعثان من عينيها انبعاثاً غريباً أخذ مكانهما كدرة واضحة واغبرار ، وأن تينك الوجنتين الورديتين أخذ لونهما ينضل ويحول ، وأن الشفتين المرجانيتين حل محلهما خيطان أبيضان في حمرة خفيفة توشك أن تزول . وهالها ما رأت ، ووجه تفكر وتحلل ؛ ولو كان له جس الشعور صوت مسموع لسمعتها حينئذ تقول :

لم كل هذا ؟ ! إنني أشعر بسرور خفي ولكنه أكيد كلما مضى الأسبوع ولم تكن دعوات ولا اجتماعات ولا زيارات . أيمكن أنى مللت حقيقة

مخالطة الناس ورضيت بالوحدة والانقطاع عما سواها ؟ كلا ! كلا : والدليل أنى لازلت أرتاح لزيارة صويحباتي وجاراتي ، وأنى مافتت أزوهن وأسزيرهن وأجد الأنس والغبطة في ذلك . إذا ما هو وكيف أفسره ... ؟ : يا الله ! أيمكن أن يكون ذلك هو السبب ؟ : أ كاد أعرف : أ كاد كشف الحقيقة المرة ... لقد شاهدتهن في الحفلة الراقصة منذ أسبوعين يتسابقن للرقص معه ، ورأيتهم يمتحنه بعيون لا يخفى فيها الإعجاب إن لم يكن ما هو فوق الإعجاب ! ثم ألم تمتدح جميلة وسعاد ذوقه ولطفه في أذنى ؟ وتلك الشقراء معورة العينين شهوانية اللحاظ كم أثنت على سمته وأناقته « التي لا ترتفع إلى حدود التماثل الهندسي والسمت البوذي كما نرى في بعض المخائيل من عبّاد الزى والأناقة »

ووقفت فريدة عند هذا الحد من التساؤل والتظنى خشية أن يجرفها تيار الشعور إلى نقطة الخطر في مجارى الشعور حيث تتركز الخواطر والهواجس وتحتشد في نقطة واحدة لا تحول عنها ولا تريم . وعادت تقول : وما شأنه هو إذا كان سمته أو ذوقه أو أناقته أو أى عنصر من عناصر شخصيته مثار الإعجاب ومبعث التقدير أو خلافاً في نفوس الأوانس والسيدات ؟ أليس هو لى وحدى دون سواى ؟ أليس يعود فى المساء من عمله المرهق فيزول فى لحظة كل ما ازدحم على جبينه من تقطيب الجد واكفهرار العمل ، ويودعنى فى الصباح وبوده ألا يودعنى ؟ ألم يقل لى منذ حين إنه لا يشعر بأنه يحيا على متن الحياة إلا فى البيت ، وأنه خارج البيت كأنما يحيا على هامش الحياة وحفاف الشعور ؟

هكذا حلت فريدة الموقف وعرفت أنها

إهمالاً تكاد تبين فيه القصد، وأن رأته يخلق ذقنه يوماً
ويتركها يوماً آخر بدل الخلاقة اليومية التي اعتادها .
وقد نهته يوماً إلى ذلك فأجاب : إن الخلاقة كل
صباح صيرت جلدة وجهي حساسة كل الحساسية،
فأنا أعمد إلى إطالة فترة الخلاقة لأريحها

وأخيراً زال كل شك من نفسها فيما انتهت إليه
من أمر صادق حينما رأت شعر رأسه يتدلى وراء
أذنيه بشكل ظاهر، فأغرورت عيناها، ودلفت إليه
وجلست حذاءه، كف تمرُّ على سحنته، وأخرى
تعبت بشعر رأسه، وخاطبته بصوت فيه الألم
والسرور :

وأخيراً يا صادق، ألا تنوى أن تدعو الحلاق
ليسوَّى هذا الشعر الذي أخذ يتدلى وراء أذنيك
بشكل ظاهر؟ هل أدركت ذهول الفلاسفة أو
اعتقادهم أنه ليس ثمة فكر عميق بدون لحية كثة
وشعر متهدل طويل؟ هذه اللحية الشائكة تكاد
ترك خدوشاً في وجهي كما أمرت سحنتي على
سحنتك

— أما لحيتي فقد فسرت لك لماذا أحلقها يوماً
وأتركها آخر . وأما شعر رأسي فأؤثر أن أتخطى
الزمن الذي كنت أعيّنه للخلاقة لأنجو بعض
النجاة من أخطار الحلاقين وما يعرضون المرء له
من أسباب العدوى والإصابة . وقد فاتني أن أذكر
لك أنه جاءني في الأسبوع الفائت شاب يطفح على
وجهه مرض خبيث، وبعد البحث علمت أن حلاقه
أتمخه بهذا المرض بموساه أو يده القذرة . ألا قبَّح
الله الحلاقين! إنهم وسيلة أكيدة لنقل الأمراض !
— اسمع يا صادق ! غداً عيد ميلادك وسوف
يكون عندنا صنوف من الناس، ولن أطيق أن أراك

وساوس الغيرة في غير مبرر؛ أخذت تهش وتعيث
في صدرها « ولكن أليس هذا كالذي يستاق في
الفراس ويذهب يثن ويتوجع توجع المريض المدنف
لأشياء إلا لعله أن في الهواء الذي يستنشقه جرائم
المرض وأسباب الإصابة ؟ »

ولكن المنطق شيء، والم عاطفة شيء آخر . فإن
فريدة — بالرغم من تحليلها هذه الماطفة الطارئة
تحليلاً صحيحاً، وبالرغم من زوال الشيء الكثير من
أسباب القلق وعدم الاطمئنان — ظلت تشعر بالراحة
وانفراج الشعور كلما مضى اليوم أو الأسبوع دون
أن يُدعوا إلى اجتماع أو يضطروا إلى إقامة اجتماع في
منزلها . وتمنّت لو تزول هذه الاجتماعات زوالاً
نسبياً أو مطلقاً فيزول معظم السبب فيما تخشى وتحاذر
ولاحظت فريدة كأن رغبته في هذا الشأن
استجيت، فقد رأت صادقاً يمتدّر لأصدقائه عن
كثير من هذه الاجتماعات بحجة العمل الكثير
والزيارات الطبية المفاجئة؛ وقل تبعاً لذلك دعوتيهما
الأصدقاء والمعارف إلى منزلها . وقد حملته فريدة
أولاً بحمل الأمر العارض الذي لا يلبث أن يزول،
ولكنها لاحظت استمراراً من صادق على الأعراض
عن معظم هذه الدعوات، فأخذت تسائل نفسها :
أيمكن أن يكون قد فطن إلى ما في نفسي فاستجاب
له استجابة الزوج الوفي الكريم؟ وهل كثير على
صادق أن ينفذ إلى علة قلبي وشجوني، وهو الذي
لا تخفي عليه خافية من أمري؟ الحق لولا أنني
لا أحتفظ في صدري بصورة غير صورته لأرعدت
كلما أطل في عيني أو تفرس في وجهي
وزادها يقيناً بأن صادقاً عرف خبيثة أمرها
فأخذ يجاريها على ما في نفسها أن رأته يهمل هدامه

— أوه ! أغتفر ماذا يا فريدة ؟ أغتفر لك أن
شحب لونك ، وزالت نضارتك ، وشح نومك
وأوشكت أن تذوى ذوى الزهرة فى مهب الريح
اللافتة لما خيل إليك أننى صائر إلى غيرك ؟ ! ثم
أية متعة من متى لا أدخل عنها فى سبيل أن تعود
إليك نضارتك ويثوب إليك بشرى واستقرارك ،
كما لاحظتها تعود بعد زوال مذلتي استجابتنا
للدعوات والاجتماعات

ومن ذلك الحين عادت الزيارات إلى الاتصال ،
وعادت ألبسة صادق إلى أناتها وانسجامها ، وعادت
فريدة لا يقلقها أن تسمع الثناء والاعجاب بصادق
يصبان فى أذنيها ؛ فلقد وثقت بأنه لها وحدها دون
سواها ، بل لقد أصبح الاعجاب بصادق فى أية ناحية
من نواحي شخصيته يسرها ويظهرها . ذلك أنها
وثقت بأن صادقاً جزء منها ومكمل لها حقاً ؛ وإذن
فالثناء عليه والاعجاب به لها فيهما حصّة
أرب عباسى

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثنى ١٢ قرشاً

بهذه الدقن أو هذا الرأس ، فأما أن تقوم تدعو
الحلاق الآن أو ...

— أو ماذا ؟

— أو أننى آتى بالمقص والمشط ، أنا

— بالله أسرعى يا فريدة ! إنه لتدبير والله !
سوف توفر الفروش التى تدفعها لذلك الثمنار .
وفوق ما توفرين من دراهمى سوف أكون آمناً على
نفسى بين يديك . وفرق بين أن يمر ذلك الحلاق
القذر يديه على وجهى وعنقى ، وبين أن تمرى هاتين
اليدين النظيفتين على رأسى ووجهى .. لماذا تلتكئين ؟
هل آتى بالمقص والمشط أنا ؟

لا تنجأه يا صادق ! فأنت أدق حساً وأوعى
شعوراً من أن يجوز عليك طور من أطوارى . هيا
نسدل ستاراً على هذه الهزلة التى أوشكت بحماقتى
أن أصيرها مأساة

وطوقته فريدة بذراعيها وانهاالت تقبله وتقبله
حينما وقع شها من وجهه ورأسه ، والدموع تسفح
على وجنتيها ، والكلمات تقطعها أنفاسها التهدّجة
وصدرها الذى أخذ يعلو ويهبط بسرعة وشدة

ولم يستطع صادق عند هذه الثورة النفسية إلا
أن يستجيب لها ويرد لفريدة قبلة بقبلة ، وهوى خلال
ذلك بناديهما ، مالك ؟ ! أجننت ؟ ! لاشك قد جنت !
لقد خنقتنى وكنت أنفاسى ! خلّى عنى ! أنفى وحده
لا يكفى للتنفس !

ونجيبه : نعم جنت ؟ وآية امرأة لا تجنّ إذ
يكون لها مثلك ؟ ! لقد جزت الامتحان يا صادق .
لقد جزته . اغتفر لى غيرتى الحقاء التى صدّتك عن
محافل الأنس ، وألبستك ما لا يتلاءم وذوقك وكادت
تبدلك فيلسوفاً بلحية مرخاة وشعر مرسل